ملامح (الاستشراق) و(الحوار الحضاري) في رواية :(ترنيمة امرأة.. شفق البحر)

للكاتب سعد محمد رحيم

أ.د.فاضل عبود التميمي / جامعة ديالى/ كليّة التربية للعلوم الإنسانيّة

1. ملخص البحث:

يريد هذا البحث أن يقرأ بمنهجيّة تحليليّة تعنى بمضمون الأفعال السرديّة روايـة الكاتـب العراقـي سعد محمد رحيم:(ترنيمةامرأة.. شفقالبحر) الصادرة عن دار فضاءات :عمّان 2012 م،لغرض الكشف عن تمثيلاتها السرديّة لثيمتين مهمّتين سابحتين في فضائها أعني:(الاستشراق) الذي بـدا واضـحا فـي تفوّهـات بطلـة الروايـة الايطاليـة (كلوديـا) التـي مثّلـت فـي الروايـة نمطـا مـن التفكيـر الاستشـراقي الجديـد،و(الحوار الحضـاري) الـذي بـدت دلالاتـه ظـاهرة فـي الحـوارات التـي دارت بـين بطـل الروايـة العراقي (سـامر)،ومجموعة مـن الأوربيـين التـي اشـتملت علـى رؤى سياسـيّة:ثقافيّة فرضـتها طبيعـة العلاقات التي تريد للجميع أن يتعايش على الرغم من الاختلاف الثقافي، والاثني، لكنّـالحوارات - وهـذا ما كشفته الروايةـ لم تكن متوازنة بسببعد الشقّة بين عقلين متقابلين يرى كلٌّ واحد منهمـا أنّـه علـى حق، فضلا عن الإحساس بتفوق الغرب على الشرق، وأثره في توجيه الحوارات، وتحديد نتائجها.

1- المدخل:

الاستشراق مصدر للفعل(استشـرق) بمعنـى طلـب الشـرق، كمـا يقـال استفهم :طلـب الفهم،واسـم الفاعـل من(استشرق):مستشـرق، والتشـريق الأخـذ ناحيـة الشـرق ،ويقـال شـتان بـين مشـرّق ومغرّب،وشرّقوا ذهبوا إلى الشـرق، أو أتـوا الشـرق[1]،وهـو فـي لغـة الاصـطلاح: ميـدان مـن ميـادين الدراسة المتفقّهة...قائم على وحـدة جغرافيّـة ،وثقافيّـة، ولغويّـة عرقيّـة اسـمها الشـرق، فهـو بايجـاز مصطلح نوعي شامل يصف التناول الغربي للشـرق،[2]،أي أنـه بنيـة مركّبـة الاتجاهـات هـدفها معرفـة الشرق، والكشف عن ثقافاته.

وكان (إدوارد سعيد)قد أرّخلبداياتهبصدور قرار مجمع (فينّا) الكنسي عـام 1312م الـذي أسّـس عددا من كراسي الأستاذيّة في :العربيّة، واليونانيّة، والعبريّة ،والسريانيّة في جامعات أوربيّة معروفة [3]، و(إداورد سعيد)نفسه يؤكد أنّ منتصفالقرن التاسع عشر الميلادي كان قـد شـهد الانطلاقـة الكبـرى للاستشراق حين أصبح مكتنَزا علميّا متّسعا هدفه الشرق[4].

وكانت مؤسسات الاستشراق قد أسهمت في دراسة متـون كثيـرة فـي العربيّـة وآدابهـا، والتـاريخ والجغرافية ،والفكر والفلسفة، والفقه، وفي موضوعات أخرى يصعب حصرها في هذا المقـام، محقّقـة

المئات منها، فضلا عن عنايتها بالآثار واللغات القديمة ،لتظل- تلك المؤسسات- منتجة لخطاب اتصلت دلالاته المعرفيّة، والثقافيّة بالفكر العربي المعاصرعبر بوابات :القراءة المباشرة، والترجمة، وتلقي المؤسسات، والأفراد.

وكان خطاب الاستشراق ،ولمّايزلموضعاختلافقراءاتالعربوالشرقيين،فهم بين متأمّل، ومتبنّ، وناقد عن دراية ، ورافض، وقابل بحذر، وهذا شأن كلّ خطاب يحتمل التأويل.

2- الرواية وأطر التمثيل الأدبي:

هل يمكن للرواية ،وهي محض نصّ أدبي تخيّلي أن يمثل واقعا ماضيا في حياة شعب، أو أمّة؟،بمعنى أدق هل يمكن أن نركن إلى الرواية لكي نفهم جزءا من الماضي الذي أصبح في ذمّة التاريخ؟،سؤالان لابدّ من الإجابة عنهما لكي تكتمل الصورة في الذهن الذي يتلقى السرد ممزوجا بالأنساق الثقافيّة الفاعلة في حياة أمّة ما.

ممّا لاشك فيه أنّ المدونات التأريخيّة تستطيع أن تقدّم لنا وصفا دقيقا للماضي،لكنّ النصوص الأدبيّة لاسيّما السرديّة تستطيع أن تقدّم الوصف ممزوجا بالفهم الواضح لما جرى، فضلا عن النقد الذي نستنبطه خلال القراءة الدقيقة للمتن الروائي وتلقيه :((فالرواية أكثر نظم التمثيل اللغويّة في العالم الحديث من حيث إمكاناتها في إعادة تشكيل المرجعيّات الواقعيّة ، والثقافية ، وإدراجها في السياقات النصيّة ،ومن حيث إمكاناتهافي خلق عوالم متخيّلة توهم المتلقي بأنّها نظيرة العوالم الحقيقيّة ،ولكنّها تقوم دائما بتمزيقها ،وإعادة تركيبها بما يوافق حاجاتها الفنيّة ،دون أن تتخلى في الوقت نفسه عن وظيفتها التمثيليّة))[5]،وهذا يعني أنّ الرواية بتمثيلها السردي لما جرى تستطيع أن تقدّم قراءة جديدة للماضي غير خاضعة لثبات النظرة الأحاديّة التي ترى الواقع ولا تمثّله؛لأن التمثيل:((الكيفية التي تقوم بها النصوص في إعادة انتاج المرجعيّات على وفق أنساق متّصلة بشروط النوع الأدبي، ومقتضيات الخصائص النصيّة،وليس امتثالا لحقيقة المرجع،فالمرجع مجموعة أنساق ثقافيّة محمّلة بالمعاني الإجتماعية، والنفسيّة، والفكريّة في عصر ما))[6].

لقد بات من المعلوم في العصر الحديث أنّه:((لم يعد بوسع التمثيل الاكتفاء بوعي الأشكال ،والمواصفات الإنسانيّة بل تعداها إلى ضغوطات تلك القوى العابرة للشخصي، والإنساني ،والثقافي مثل: الطبقة ،واللاوعي ،والجنسGender، والعرق، والبنية))[7].

قبل أن تظهر الوظيفة التمثيليّة للرواية ،وهي وظيفة حديثة كشفت عنها الأدبيّات السرديّة المعاصرة كانت الرواية قد كشفت عن وظيفة الإتصال مبكرا حينأسهمت في مدّ الجسور بين الحضارة الأوربيّة ،والعرب ناقلة الثقافة الغربيّة إلى المحيط العربي لغرض التعريف بها، وايجاد فواعل مشتركة بين الحضارتين ،فليس عجبا أن يكون (رفاعة رافع الطهطاوي- 1873م-) هو من ترجم رواية(وقائع تليماك)،التي تُعدّ أوّل رواية غربيّة تترجم ليقرأها العرب[8]، بوصفها فنّا جديدا وفد إلى مصر من باريسمهمته نقل الثقافة الاوربيّة ،وتعريف المواطن العربي بمنجزات الحضارة الغربيّة[9].

وكانت رواية (ترنيمةامرأة.. شفقالبحر) قد سُبقت بأعمالأدبيّة ،وروائيّة عربيّة تناولت العلاقة بين الشرق، والغرب لعلّ من أهمّها:(حديث عيسى بن هشام) للمويلحي، و(رواية الدين، والعلم والمال، أو المدن الثلاث) لفرح أنطون ،و(عصفور من الشرق) لتوفيق الحكيم،و(أحلام يولند) ،أو (الأمير الشرقي في دور المهرّج)،و(الشرق شرق) لفؤاد الشايب ،و(قنديل أم هاشم) ليحيى حقي، و(الحي اللاتيني) لسهيل إدريس، و(وموسم الهجرة إلى الشمال) للطيب صالح[10]،و(ثلاثيةشيكاغو)للروائي العراقي المغترب محمودسعيد.

أمّا في العراق فيرى د. شجاع العاني أنّ روية آكوب جبرائيل المحامي:(عجائب الزمان في صرح عروس البلدان) أخذت شكل رحلة إلى أوربّا تحدّثت عن جمالها ، وما شاهده من مظاهر العمران والتمدن، فضلا عن رواية سميرة المانع (السابقون واللاحقون) التي تعد تمثيلا سرديّا لحياة امرأة عراقية عاشت في لندن[11]، الروايتان على الرغم من اختلافهما في الرؤية ،والتمثيل تمسان مسّا خفيفا طبيعة العلاقة الرابطة بين الشرق، والغرب.

يرى د. سمير الخليل أنّ الروائيين العرب تعاملوا مع موضوعة الغرب ،وإشكالاتها من وجهة نظر(رومانتيكيّة) بعيدا عمّا يسمى بـ(القهر الإستعماري)،بخلاف الروائي السوداني(الطيّب صالح) في روايته (موسم الهجرة إلى الشمال) الذي أعطى لروايته بعدا تراجيديّا كسر جدار الأوهام المحيطة بعلاقات الشرق والغرب[12].

في رواية:(ترنيمةامرأة.. شفقالبحر)،جرى تمثيل ثيمتينمهمّتينمن ثيمات الوعي الإنساني السابح في فضاء العلاقة الرابطة بين الشرق ،والغرب أعني:(الاستشراق) الذيبدت ملامحهواضحةالقسماتفيتفوّهاتبطلةالروايةالايطالية (كلوديا) ،وكذلك في (الحوارالحضاري) الذي جاء ليكمل ما بدأه عصر الاستشراق القديم من انفتاح على(الآخر) بهدف ايجاد انسجام حضاريّ، ونفسيّ بين الشعوب .

3-ملامح الاستشراق:

تتجسّد ملامح الاستشراق بدلالات واضحة في مفاصل الرواية، ومسالك تشكيلاتها لتأخذ منحى إعلانيّا عبر تفوهات شخصيّة كانت تمارس الوعي الاستشراقي مرتبطا بايدلوجيا واضحة، أعني شخصيّة (كلوديا) الفتاة الإيطاليّة التي أغوت العراقي (سامر) بمفاتن جسدها البض آخذة إياه من (سوسة) التونسيّة -حيث كان وصل إليها قادما من طرابلس (ليبيا) التي عمل فيها-إلى إيطاليا ليعيش هناك في كنف رعايتها اليوميّة.

(كلوديا) مركز الوعي الاستشراقي في الرواية،تتقن الانكليزية جيّدا،وتستطيع التفاهم مع من يفهمها بالعربيّة،ولها شغف بالسفر إلى الشرق،ترغببعبور صحاري افريقيا، وسلوك طريق الحرير في مجاهل آسيا على ظهور الخيل، والجمال ،أو مشيا على الأقدامبصحبة فتى من الشرق صبور، وشجاع تحلم أن يخرج إليها من أغوار حكايات ألف ليلة وليلة،(الرواية:8،7).

إنّ التدقيق في السمات الشخصيّة ،والمؤهلات الثقافية، والمعرفيّة لـ(كلوديا) يحيل شخصيتها على أنها قريبة من الفكر الاستشراقي ،أو هي راغبة فيه، أو انها(مستشرقة)، فقد استطاعت الرواية أن تقدّم نسقها الخاص بدقة ،حتى حلمها الرومانسي كان مرتبطا بفضاء الليالي العربيّة تأكيدا على تقديم الصورة الخاصة بها بما يقرّبها من أجواء الشرق، وشخصيّة (سامر).

وكانت الرواية قد هيّأت وصفا دقيقا للعراقي(سامر) الذي عاش منفيّافيبيته،وعنأقربالناسإليه في مدينتهالاولى (السعدية) ،قبل أن يهاجر إلى ليبيا ليعمل أستاذا للأدب الانكليزي في جامعة (طرابلس)،بمعنىأنّهعاشحالةالاغترابالحقيقي في وطنه العراق، قبل أن يعرف معنى الغربة.

على الرغم من وسائل الترويح التي خُصّ بها (سامر) في شقة أعدّتها(كلوديا) إلا أنّ ثمّة أسئلة كبرى كانت تنهض من بين مسامات عقله مثل:لماذا هو في إيطاليا، وما ينبغي عليه أن يفعل...أسئلة يسأل بها نفسه دون أن يجد لها جوابا(الرواية:21)؛ولهذا فهو خائف دائم الوجل من شيء ما،لاسيّما من الشرطة،وإن لم يكن متّهما،فوضعه القانوني هناك يمنحه القلق الدائم(الرواية: (37)،فقد دخل إيطاليا ،أو أدخلته(كلوديا) خلسة عن أعين الشرطة، كما يدخل المهربون ،واللصوص،فحين تحاذيه سيارة الشرطة الإيطالية ،ويسترق الشرطي الجالس جوار سائقها النظر اليه تنقلب أحشاؤه، وهوّة صغيرة تفغر في داخله، ويتولى ساقه الارتباك(الرواية:219)،أكان خوفه استرجاعا لخوف قديم،أم ولادة خوف جديد يضاف إلى خوفه القديم؟.

إنّ شخصيّة (سامر) بكلّ ما تملك من إطار ثقافي ،ومحتوى معرفي شخصيّة قلقة بفعل عوامل تأريخيّة كثيرة، فهو في سيرته بدأ من طفولته ،حتى وصوله إيطاليا مجموعة مركبة من المعاناة الممزوجة بالفشل، والخيبة، والإحباط شأنه شأن كلّ الجيل الذي وُلد ،ونشأ في ظل الحروب التي عاشها العراقيون: فشل في الحياة، والحب، والسفر يقابله فقدان دائم للحب، والحياة، والانسجام الخاص مع الذات، والآخر القريب ،والبعيد.

و(سامر) الذي تنجح الرواية في وصفه، وتقديمه في إطار إنسانيّ واقعيّ في عيني(كلوديا)رجل شرقي لايمكن أن يتخلّى عن رومانسيته(الرواية: 227:112)،وهو فضلا عن ذلك معروفبغيرته الشرقية(الرواية:116 ،148) ،يعوّل كثيرا على الاحلام(الرواية:119 ،221)،ولايعتني بأموره الشخصية في الشقة التي يسكن فيها، فوضوي غير منظّم ،لم يتعلم من (كلوديا) تحديد المكان الذي يضع فيه حذاءه،وقد أرغمها- وهي المحبة له- أن تصفه بقولها:((أنت محير يا سامر ..عاطفي، ومغرم بالحزن..شرقي من طراز رفيع))(الرواية:239).

نعم (سامر) رجلشرقيّبامتياز،قدممنصحراءالعطشالكبرىليلامسأصابع (كلوديا)التيتوقظفيهألمامطهّرا،ونشوةخاطئةيسمعلىأثرهاقعقعةعرباتالرغبةفيدمه،فضلا عن رنينالأجراسالمعلّقةعلىرقابخيولتركضفيصحرائه(الرواية:13)،فيإشاراتكنائيّةإلىالحالةالنفسيّةالتييعيشهابعيداعنوطنه.

صورة (سامر) السابقة هي صورة الشرق في عين خطاب (كلوديا) بلا منازع حيث الحياة تجري بإيقاع رتيب وممل ،فالشرق في التمثيلات الاستشراقية مؤطّر بطقم كامل من القوى التي قادت الشرق إلى مجال المعرفة الغربيّة ،والوعي الغربيوفي مرحلة تالية الامبراطوريّة الغربيّة[13].

على الضد من صورة(سامر) تنهض في الرواية صورة (كلوديا)فهي في سن السادسة عشرة من عمرها وجدت نفسها أكثر حريّة في كنف والدها بعد أن انفصلت أمها عن العائلة مفضلة الطلاق ،وكانت (كلوديا) قد عرفت الحب مبكرا لتسلم جسدها الى رجل في الأربعين نقل اليها عدوى الحلم بالشرق ،أعطاها كتابين في أدب الرحلات وأثار فيها مشاعر مختلطة فحدست الغاية العميقة لماهيّة حياتها(الرواية:111)،فهي في مسعاها الاستشراقي كانت قد اختارت مجالها الثقافي عن وعي ،وقصديّة واضحة ،لها رغبة في أن تعيش متعة رحلة في الصحراء ،أو في غابات افريقيا ،أو على طريق الحرير ولا تحلم باكتشاف ما(الرواية:125) ،فقد كان حلمها أن تخوض مغامرة الصحراء(الرواية:226) ،أي الاتجاه نحو الشرق .

(كلوديا)وهي فضلا عن كلّ ما ذُكر مخلِّصة لـ(سامر) من محنته،فهي على حدّ تعبيره:((تريد أن تنقذني من نفسي،من عبء الذكريات، وسطوتها))(الرواية:97) ،والأشهر القليلة التي عاشها في كنف رعايتها جعلت منه شخصا آخر((هذه الأشهر القليلة معك انضجتني أكثر لاشك))(الرواية:228)،يشعر عندها بالأمان،(الرواية:161) امرأة واقعية ترى أن عصرها ((تخطى الرومانتيكية، وهي لا تؤمن بها،وتكره العواطف المبتذلة والدموع والتشبث الغبي بالماضي السعيد.. كائنة من أجل المستقبل))(الرواية:235).

صورة (كلوديا) السابقة التي رسمتها تفوهات(سامر) لا يمكن تجريدها عن فضاء الصورة الأكبر التي رسمتها مخيلة (الشرقي) لأوربّا ،لاسيّما بعد أن نجح الاستشراق في توجيه خطابه إلى مجموعة غير قليلة من المثقفين العرب ،والشرقيين ،أوربّا المنقذة التي لها القدرة على صياغة الانسان الشرقي صياغة جديدة تجعله أكثر نضجا، وحضارة ،أوربّا الواقعيّة التي تخطت عصر الرومانسيّة،والعواطف المبتذلة،والتشبث بالماضي لتنطلق نحو حاضرها المنفتح على العلم،والمعرفة.

وقد رسمت (كلوديا) صورة لـ(سامر) هي في نسقها الكلي تحال على فضاء التخلّف،والانحطاط الشرقيين،الذي ارتبطت أطروحاتهالأوربيّة بالأفكار السائدة حول الأسس الحيويّة (علم الحياتيّة) التي تؤكد مبدأ التفاوت العرقي بين العروق الإنسانيّة ،فضلا عن الأفكار (الداروينيّة) التي سعت إلى تقسيم العروق على متقدمة وأخرى متخلّفة ،فكان الشرقيّون جنبا إلى جنب مع الشعوب التي وصفت بأنّها متخلّفة، ومنحطّة ،وغير متحضّرة، وقاصرة عقليّا ،فهم في النتيجة مشكلات تتطلب الحلّ ،أو الاحتلال[14].

ولـ(كلوديا) أن تعلن بصريح العبارة أنها تبحث عن فردوسها المفقود، أو وهمها الذي يساعدها على الحياة، وحين تبحث في المكان الخطأ لا تجد ضيرا من استبداله بمكان آخر صحيح

بدليل(الرواية:10) ،بمعنى أنّ لها أهدافها الخاصّة التي تريد أن تحققها تبحث عن الصورة الجميلة والمدهشة ،وترى في عيني (سامر) غبش الصحراء في إشارة دقيقة إلى ربطها الخاص بالعام (الرواية:12).

كان (سامر) قد أدرك منذ الوهلة الاولى من لقائه بـ(كلوديا) أن فتاته تمثل نمطا خاصّا من النساء الأوربيات ،ولم يكن الرجل بعيدا عن صورة نساء أوربا، فقد أكمل دراسته الجامعية في قسم اللغة الانكليزية ، وهذا يعني أنّه كان قريبا من الأدب الإنكليزي الذي يعكس الطبيعة المتحركة للإنسان الأوربي،فضلا عن الفكرالاستشراقي،وايديولوجيته.

في واحد من أهمّ حوارات (سامر)مع(كلوديا)سألها بعد أن لاحظ عنايتها الدقيقة بالشرق:((يبدو أنّك سليلة رحّالة حالم من أولئك الذين غامروا في القرن الثامن عشر ،أو القرن التاسع عشر بالقدوم إلى الشرق))(الرواية:12) ،لم تجب لدواع معروفة لعلّ من أهمّها رغبتها في عدم الكشف عن ماضي العائلة،أو الكشف عن دواعي الاستشراق مفضّلة التقلب على رمال الساحل البحري الإيطالي ،والتقهقه،وتغييرمسارالحواربالإحالة على رمل الشرق:

((- كم أود لو استلقي على الرمل القائظ هناك.

- لن تتحمّلي حرّنا الكافر

- سأقسر جلدي على تحمله))(الرواية:12،13).

ولكي يكمل لنا السارد صورة(كلوديا) الراغبة في معرفة الشرق فإنه يعمد إلى وصف شقتها في روما وصفا واقعيّا يحيل على عنايتها المعرفيّة التي لا تريد أن تغادر صورة (المستشرق) الذي يريد أن يعيالشرق:((في الجهة المقابلة للبار جهاز كومبيوتر، ومكتبة حائط صغيرة مشيت باتجاها بفضول..كتبٌبالإيطالية، وأخربالإنكليزية،ومعظم الكتب الأخيرة لرحالة إنكليز من القرن التاسع عشر، وبدايات القرن العشرين التقطّتُ كتاب لورنس(أعمدة الحكمة السبعة) ،وقراتُ بضعة أسطر قبل أن أعيده إلى مكانه))(الرواية:20) ،ثم يخبرنا أنّ(كلوديا) درست التاريخ، واللغات ،وزارت مصر، والمغرب ،وتونس(الرواية:112)،لكي يتيح لنا تقبّل صورتها الاستشراقيّة.

والاستشراق عند (كلوديا)صناعة أوربيّة بامتياز:((إنهالشرق،أوالجنوب... شرقي، أوجنوبيصورتهالتيصنعتهاأنا))(الرواية:227)،وهذا ما أدركه (سامر) أيضا في حوار له معها:((كان الرحالة أجدادك ...يرسمون صورنا كما أرادوا أن نكون،كما تخيلونا في رؤوسهم))(الرواية:237)،بمعنى أنّ (كلوديا)مثّلتفيالروايةنمطامنالتفكيرالاستشراقيالجديد الذي يريد أن يصنع للشرق صورته الغرائبية التي يتفنن المستشرق في صياغة شكلها، ومضمونها لا أن تكون مستلّة من واقعها المعيش.

وأحسب أن تمثيل الرواية للملامح الاستشراقيّة قائم على تمثيل سابق هو تمثيل الاستشراق في الثقافة الاوربيّة الذي كان في النهاية،- وعلى حدّ تعبير (إدوارد سعيد)-تواترا استطراديا يملك تاريخا

،وحضورا مؤسّساتيّا خاصّا به [15]،الأمر الذي جعل تمثيل الرواية يقدّم نمطا من الخطاب الغربي الذي لا يخلو من انحياز يتيح للمتلقي أن يعرف أفكارا عن الغرب، وأن يسأل لماذا اختار المؤلف استشراقا إيطاليّا ؟.

يبدو للبحث أنّ المؤلف (سعد محمد رحيم) كان قارئا لطبيعة الفكر الاستشراقي ،وتمثّلاته النصيّة فهو يعرف أن:((طهحسين،وسهيلإدريسقداختارافرنسا،واختارالطيبصالحبريطانيافيحيناختارمحمودسعيدالولاياتالمتحدةالأمريكية))[16]،فهل يكرّر الروائي (سعد) اختيارا سابقا، أو يختار مكانا يمسّ فكرة الاستشراق ،ولم يقف عنده روائي آخر؟...لقد اختار المؤلف على لسان السارد (إيطاليا) وهو اختيار موفق فقد كانت ايطاليا :((أعرقأمم الغرب التي اتصلت بالشرق الأدنى اتصالا وثيقا منوّعا ،ونالت الثقافة العربيّة، واللغات الشرقيّة من الترجمة، والحفظ ،والتعليم ، والنشر بفضل الفاتيكان حظّا موفورا موصولا))[17].

وللبحث أن يسأل هل اعطت الرواية صورة واضحة، ودقيقة لـ(كلوديا) المستشرقة؟،لقد سكتت الرواية عن التفصيلات الخاصة بمسائل الاستشراق التي هي من صلب سيرة (كلوديا) الشخصيّة ،ولها الحق في ذلك ؛لأنها ليست رواية سيرة، أو رواية همّ استشراقي، وحضاريّ فقط ، وانما هي رواية بوح إنسانيّ أراد لها مؤلفها أن تنهض بمحمول إنسانيّ يمسّ العلاقة المتوترة بين الشرق والغرب.

4-الحوار الحضاري:

وإذا كان(الاستشراق) قد بكّر في فهم الشرق، فإن مصطلح(الحوار الحضاري) جاء مساندا له بعد سنوات ليست بالقليلة ليضفي طابعا (ديمقراطيّا) على طبيعة العلاقة الرابطة بين شعوب الأرض في الغرب، والشرق، ممثّلا وجهة النظر الخاصّة بالمؤسسات السياسيّة، والثقافيّة في أوربا ،والمشرق معا.

و(الحوارالحضاري) حقيقة ثقافيّة: سياسيّة لها جذرها الذي يمتد إلى أوائل السبعينيّات من القرن العشرين التي شهدت ولادة مفهوم (الحوار العربي الأوربي) الذي انبثقت آلياته على أثر قيام حرب تشرين الأول 1973 بين العرب، والكيان الصهيوني، فقد بادرت السوق الأوربيّة المشتركة، وجامعة الدول العربية إلى أن تجد صيغا للتفاهم فيما بينها بدفع من ثلاثة عوامل:اقتصادية، واستراتيجية، وسياسية[18].

و هو من المفاهيم الحديثة التداول في الأدبيّات السياسيّة ،والثقافيّة إذ لم يرد في المعجمات السياسيّة،ولا في ميثاق الأمم المتحدة ،أو في الاعلان العالمي لحقوق الانسان[19]،ولكنّه من حيث البنية ،والتشكيل فرض نفسه بوصفه (مصطلحا) جديدا له علاقة بجملة التحولات السياسيّة، والثقافيّة التي بدأت تستقطب عناية الباحثين، والدّارسين، والإعلام.

و(الحوارالحضاري) بآليّاته، ومجموع خطاباته يشتمل على رؤى سياسيّة ،وأخرى ثقافيّة ذات طابع فكريّ منظّم يحيل على متطلبات حضارية فرضتها طبيعة المجتمعات التي تريد أن تتعايش على

الـرغم مـن اختلافاتهـا الثقافيّة،والإثنيّـة فـي عـالم اليـوم ،وعـادة مـا يجـري هـذاالحواربين الأفـراد ،والمؤسسات ليمثّل نمطا من التفكير المتعارض الذي يجري تحديده مسبقا في مؤسسـات أعلـى ،حتـى الأفراد الذين لا ينتمون إلى مؤسسات سياسيّة ،أو منظمـات مجتمعيّـة فـإنّ مرجعيـاتهم الخاصّـة تتـولى توجيه خطاباتهم ،ووسائل اتصالهم بعقل الآخر.

و(الحـــــــــــــــوار الحضاري)ثيمةأخرىباســـــــــــــــــتطاعترواية(ترنيمةامرأة.. شفقالبحر)تمثيلها،وتحديدأبرزمنطلقاتهالتشير إلى حالة متخيّلة تستند إلى الحـوارات التـي تجـري بـين اثنـين، أو أكثـر تتنـاول شـتى الموضـوعاتالتي تظهـر الإبانـة عـن المواقـف، والكشـف عـن خبايـا النفس[20]،وهذاما كان واضحا في الحوارات التي كـان (سـامر)قد أجراهـا مـع (كلوديـا) ،و ومجموعـة السيّاح الغربيين التي بمجموعها تحيل على نمطين من التفكير،أو نمطين من التوصيف الذي يجمع بين عالمين متناقضين:عالم الشرق ببراءتـه المعروفـة ،وفهمـه الخـاص للحياة،وعـالم الغرب بقـوة آلتـه الاقتصاديّة ،ونفوذ سلطته السياسيّة ، ونقده الحاد للذات .

ففـي غمـرة العلاقـة الإنسـانيّة التـي جمعـت بين(سـامر)،و(كلوديا)أراد الأول أن يعبّـر عـن جملـة أحاسيسه التي تشكّلت في ذاته اتجاه فتاة أوربيّة جميلة وجدها مصادفة في تـونس وقـد بادلتـه المـودّة فلم يجد عبارة أدقّ من قولـه:((كم أنت رائعة جنتي))،بوغتت الأيطاليّة بعبارتـه:((وطاف في عينيها ظل حيرة، وقلق))،امتد بينهما صمت طويل قبل أن تفاجئـه بسؤال محيّر:

((-أتراك أنت الآخر جئت غازيا

-غازيا ؟!ما الذي يجعلك تقولين هذا؟

وضَحكتُ بارتباك وقلتُ:

إن كنت تلمحين لمصطفى سعيد في رواية:(موسم الهجرة إلى الشمال)فلست أسطورة مثله ،وهو أقوى مني ..أنا إنسان بسيط أبحث عن الـدفء فـي صـقيع أوربـا ،وأحسـبني وجدتـه بعينيـك، فتضـحك وتقول شيئا عن الشرقي ،فأقول:لو تنسي هذا التحديد المفبرك فنعود لطبيعتنا بشرا علـى كوكـب واحـد ،فتضحك ثانية وتقول: أمزح معك لا تأخذ كل ما أقولـه بحساسـية زائـدة،وتقبّل خـدي، أقـول: لـم أفكـر بالثأر ،لست أبغي إلا التفاهم،ولا أمثّل إلا نفسي))(الرواية:35،36).

يحيل النصّ السابق من الرواية على جملة من التعارضات المفاهيميّة التـي تشـكّل أساسـا لثقافـة (كلوديا)،و(سامر)، فسامر بشرقيّته العذبة أراد أن يصف كلوديا بالجنّة بوساطة النداء المحذوف الأداة ،وهو ما لم تستسغه ثقافتها التيلم تعهد مثل هذا النـداء فأوّلتهتـأويلا جنسيّا يفضـي إلـى المـوت حـين وضعت نفسها في موقف(الإنكليزية: جين مورس) التي ماتت بسبب (مصطفى)، بمعنى أنّها رفضت أن تكون ضحيّة (غزو) سامر كما كانت قريبتهـا ضـحية غـزو السـوداني (مصـطفى سـعيد) بطـل الروائـي الطيّب صالح في رواية:(موسم الهجرة إلى الشمال).

استدرك سامر لكي يجرّد ذاته من الشهوانيّة المدمّرة لذات الآخر مقترحا الرجوع إلى الطبيعة الإنسانيّة التي لا تقيم وزنا للأخلاقيات التي تستلب ذوات الآخرين بعيدا عن الحساسيات الزائدة ... تستجيب(كلوديا) نفسيّا لتؤكد اقترابها منه ، فيكون سامر أمام اعتراف خطير يبنى على ردّ التهمة التي لم يرتكبها !،فهو إنسان لا يبغي في علاقته معها إلا(التفاهم)،ولا يمثّل في هذا الكون (إلا نفسه)،ولي أن أسأل عن أيّ تفاهم يتحدّث سامر؟، أهو تفاهمه مع كلوديا،أم تفاهمه مع محيطها الثقافي، والسياسي؟،ولماذا أراد أن يؤكّد لها أنّه لا يمثّل إلا نفسه؟، أكان في موضع الدفاع عن نفسه ،أم عن حضارته؟،أم عنهما معا ؟.

هذان السؤالان لا تجيب عنهما الرواية تصريحا ،إنّما تركت الإجابة عنهما تأويلا ،فسامر المنهزم من وطنه، ومن محيطه العربي إلى إيطاليا لا يمكن أن يكون منتصرا في حواره الناقص مع كلوديا، فقد بدا أمامها ناقص الحجّة،يتخندق وراء كومة قش لا تقيه شر الدفاع عن نفسه، تحاصره الغربة، وتزدحم في عينيه الإشكالات، وينقصه إثبات وجوده.

وحين التقى (سامر) بـ(البرتو) والد (كلوديا) الذي كان لطيفا شديد الثقة بنفسه، وفيه استعلاء رجال الأعمال كان الحوار بينهما يأخذ طابعا ثقافيّا ،واضحا أفضى إلى بروز مصطلح(الآخر) للإشارة إلى الشرقيّ البعيد ذي الثقافة المختلفة المدجّجة بالبؤسالمعرفي .

من هناتساءل(سامر)وقد وجّه سؤاله إلى (كلوديا)،ووالدها:((هل أنا مَعْجَبَة آخر))(الرواية:122)،مستعيرا العبارة من مقدمة كتاب الاستشراق لإدورد سعيد[21]، للإشارة إلى أهمّ التصورات الاستشراقيّة التي تجسّد علاقة القوة، وممارسة السيطرة في مفهوم (المَعْجَبَة)،والاستعراض حيث يكون موضوع القوّة :(الأدنى والمستضعف) مادّة استعراضيّة صامتة على المسرح تمثّل استعراضيتها نمطا من العقوبة التأديبيّة التي يمارسها المستعرِض:(الأعلى :الأقوى) بحق الأدنى لتصبح تجسيدا لقوّته،وسيادته التي لها القدرة على تقديم(مَعْجَبَة) أي فرجة مثيرة،ومفرطة.

تعتذر (كلوديا) من دلالة المصطلح بعد أن تدرك أنّ (سامرا) يعيش محنة (الأدنى)،وصراعه النفسي،والحضاري مع الأعلى،وهي من حيث لا تدري تعيش غطرسة (الأقوى)،ولهذا تستدرك:((أقصد من هناك))(الرواية:122)،أي من الشرق،وقد علّق (البرتو) على دلالة المصطلح الأخير بعد أن علم أنّ رواية (سامر) التي هو بصدد كتابتها تتحدث عن:((نحن.. والآخرون..أو أنتم))(الرواية:123) ،قائلا:((أعلم يا صديقي أنّ هذه معادلات عتيقة يتاجر بها بعضهم من أجل مصالح ،وحروب قادمة، حروب دائمة))(الرواية:123)،وحين يردّ (سامر) أصل المصطلح إلى ماكنة الصناعة الثقافيّة: الغربيّة يوافقه (البرتو) ،ولكن بعد أن يستنجد بمقولات (العولمة) إشارة منه إلى انتفاء دلالات المصطلحات الغربيّة القديمة التي سماها(معادلات عتيقة) واستبدالها بمصطلحات أكثر الماعا وشاعريّة، يقول (البرتو):((العالم يتجه اليوم بالضد منها- يقصد المعادلات العتيقة ومنها :الآخر- سيكون عالم

المستقبل واحدا ..سوقا واحدة كبيرة للجميع فيها الفرصة ذاتها))(الرواية:123) ،وحين يَعُدّ (سامر) كلام (البرتو) السابق (يوتوبيا) في إشارة واضحة إلى اختلافهما الثقافي، وطرائق التفكير عندهما،لا يتوانى (البرتو) عن التصريح بايديولوجيّته التي تتقدم قناعاته الكاشفة عن رأيه بـ(سامر) وحضارته: ((أنا أثق بالعلم فهو كفيل بالإطاحة بالمعادلة اللعينة تلك بشرط أن تكونوا أنتم قادرين على الانخراط في اللعبة))(الرواية:124).

عن أي لعبة يتحدّث (البرتو)؟،لعبة السياسة التي صار الإنخراط فيها يشكّل لغزا متعدّد القراءات؟، أم لعبة اجتراح المصطلحات ،وإشاعتها، وإعادة انتاجها في عالم يتجه بقوّة الإقتصاد نحو مستقبل يعُدّه (سامر) مضبب الرؤية؟.

إنّه يتحدّث عن لعبة الإنخراط في ثقافات المجتمع الغربي ،و الدخول إلى عتبات مجتمعاته برغبة اللحاق بـ(الآخر)،واكتساب سمة الحضور المعلن في العصر،وحين يسأل(سامر)كيف؟،يجيء الجواب محمّلا بصراحة الغربي الناقد:((أنتم تتعاملون مع العالم ثوابت أكثر مما تتعاملون معه متغيرات ،أمّا نحن فنفعل العكس ولهذا ربما أو لهذا السبب ترانا أكثر مرونة ،وقدرة في السيطرة على مقادير الأمور))(الرواية:124).

يكشف الحوار السابق عن الإيديولوجيا التي تتحكم في عقل المنتصر، والمنهزم معا ،فـ(سامر) المنهزم لا يستطيع إلا أن يردّ التهم التي وجهت إليه ،أو إلى حضارته التي صارت (فرجة) الآخر في عالم لا يعرف الثبات في السياسة ، والإقتصاد ،والعلم ،عالم يتجه بقوّة نحو التكامليّة الحياتيّة التي لم يدركها سامر، ومجتمعه الذي يرزح تحت ظل سكونيّة المنهزم أبدا، و(البرتو) يستبدل المصطلحات الغربيّة القديمة بالإحالة على ما تقدمه العولمة من صورة جديدة للعالم الموحّد ذي السوقالواحدةالكبيرةالمفتوحة للجميع عابرة الخرائط والقارّات.

ويصل الحوار قمّة صراعهالنفسي بين (كلوديا)، و(سامر) حين يبادر الأخير إلى تقديم أوصاف حسيّة لفتاته،وكأنها فتاة شرقيّة ترضى بأن تنعت بألفاظ جميلة مجرّدة من حدود الصدق، والواقعيّة،يقول (سامر) موجّها الكلام لها:((مثل البحر عيناك كلوديا ،أرى فيهما السحر أحيانا، وأحيانا أرى الهول زرقة متألّقة لكنها منذرة ،وغامضة تغري بالمغامرة))(الرواية:146) ،(كلوديا) لا تبالي بهذا الإنشاء المحض الذي تعلمه(سامر) في المدارس الثانويّة ، فتردّه إلى مصدره قائلة :((أنت مجنون يا سامر..تريد أن ترى تاريخ الغرب فيّ ..هذا ظلم.. إنّك بدل أن تصنع جسرا تحرق المراكب،وتعلن الحرب))(الرواية:146).

ويكشف الحوار أيضا عن فجوة كبيرة تفصل بين ثقافتين متقابلتين لا تناظر بينهما: ثقافة (سامر) التي تعتاش على الماضي ،والإنشاء المجرّد من حدود التحقق، والمطابقة،وثقافة (كلوديا) المنفتحة غربيّا التي ترى في (سامر) شخصيّة قلقة لا تقوى على الفصل بين الانسان الغربي ،ومؤسّساته السياسيّة ،ولا تريد أن تنسى الماضي ولهذا؛ ترى في (سامر) إنسانا لا يرغب في إقامة جسر من

التواصل معها، ومع منجزها الحضاري، فهو كما ترى:لا يفكر إلا في ذاته ،واشعال الحروب الخاسرة في اشارات تدلّ على انهيار صورته في عيني (كلوديا)،واختلافها الثقافي والنفسي معه.

وحين يصل الحوار من جانب (سامر) إلى ذروة الطعن في الحضارة الغربيّة التي رأى أنها فضلا عن مزاياها الرائعة فأنها حاذقة في صناعة الموت حتى أنها فاقت في هذا الحذق كلّ الحضارات(الرواية:148) ،تنتفض (كلوديا) لحضارتها ،وتدافع ببنية العقل الأوربي الجامح: ((تبّا سامر ..أنت تضجرني..خلتك مختلفا ..أنتم الشرقيون مصابون بمرضين مزمنين لا شفاء منهما..الهيام بالماضي ،والسياسة..لا تكفون عن الحديث فيهما))(الرواية:148).

والحق أنّ (سامرا)،و(كلوديا)،و(مايكل: الضابط الأمريكي الذي أطلق صاروخه اللعين الذي من ذراته أصيبت حنان بمرضها المميت)،و(نيكول: صديقة مايكل)، و(روبرت)،و(كاترين):أصدقاء مايكل، ونيكول خليط من العرب، والايطاليين، والامريكان يمثّل بؤرة ثقافيّة تريد أن تتفاهم فيما بينها لغرض صياغة مشروع تفاهم ،لكنّ المشكلة أنّهم جميعا مصابون بهوس الدفاع عن حضاراتهم ،متمسكون بايديولوجيا ليس من السهولة تغييرها: ((يحمل كلّ منا جرثومة تأريخه، ويجد نفسه في مواجهة مرتقبة حامية غير ضرورية ،ربما مربكة ..تأريخ ليس بالمقدور التخلي عنه، أو نسيانه))(الرواية:158) ،وكان الأجدر بكلّ واحد منهم أن يتخلى عن جزء من الماضي لكي يكون الحاضر متاحا للجميع،ولهذا فَقَدَ الحوار جزءا أساسيّا من بنيته، أعني التكافؤ.

ويكشف الحوار الذي جرى بين(سامر)،والطيار الامريكي(روبرت) الذي أسهم في الحرب الامريكيّة على العراق 1991م عن بعد الشقّة بين عقلين متباعدين ينظر كلّ واحد إلى الآخر على أنّه عدو محتمل:

((-روبرت، أجل ..كنا ننفذ الأوامر..يحددون الأهداف، ويقولون لك،اطلق

-ويموت البشر

- آسف مستر سامر ..إنها الحرب بقوانينها الغبية ،أن تقتل ،او يقتلك من لا تعرفه،هل حاربت يوما؟))(الرواية:165) .

أمّا الحوار الذي جرى بين (سامر)،و(مايكل) فلا يختلف عن الحوارات السابقة ،(سامر) يتشبث بحقائق الأرض التي جعلت العراقي ضحيّة مرسومة القدر،و(مايكل) يتفوه بخطاب تنهض من بين سياقه دلالات الحقائق المرّة:((يقال إنّكم أمّة مغرمة بإلقاء تبعة خيباتها على الآخرين ،وتتخيّلون سيناريوهات، ومؤامرات تحاك ضدكم ،وكأن لا شغل للغرب سوى التفكير بتدميركم))(الرواية:186).

ما قاله(مايكل) ينزل كالصاعقة على رأس (سامر) الذي لا حيلة له إلا أن يقرّ بخواء الذاكرة التي ينتمي إليها ،فهي على ما رأى محطّمة لا صلة لها بمكوّنات الثقافة المعاصرة:(الوعي التاريخي)،و(التعلّم)،و(جوهر النقد)،يقول:((ما تقوله صحيح إلى حدّ ما ، ما نفتقر إليه هو التعلم من

التأريخ ،ومراجعة النفس،وروح النقد الذاتي))،(الرواية:186)،ولكنّه والحال هذه لا يستطيع أن يبرّئ الآخر ممّا حدث:((الغرب كذلك ليس بريئا))(الرواية:186).

لقد وضع الحوار (سامرا)،و(مايكل) أمام لحظة التصارح التي تفضي إلى كشف الحقائق الملتبسة التي تشير إلى بنية الانقطاع التي تحكم العلاقة بين الطرفين،بعيدا عن بنية الاتصال التي تتيح التقارب،والتفاهم، والاتفاق.

يقول (مايكل)مؤكدا بنية الانقطاع نفسها:((أشعر أنّ ثمة انقطاعا في التواصل بيننا، وبينكم ..كما لو أنّ أحدنا لايفهم الآخر ،كان اختلافا محزنا بين الجهتين في طريقة التفكير ،ورؤية العالم ..أتراه سوء فهم مزمن لا سبيل إلى تخطيه؟)) (الرواية:186) .

الحديث عن (الانقطاع)،و(والتواصل)،(وفهم الآخر) جزء أساسيّ من اشكالات (الحوار الحضاري) ،وموضوعاته الملتبسة في عالم اليوم، وكان (مايكل) قد تحدّث بلغة العارف الذي يرى أنها حين تضاف إلى مشكلة اختلاف الأمم في:(طريقة التفكير)،و(رؤية العالم)فإن الحوار يصل إلى طريق مسدود، يجيب (سامر) وهو يشير إلى وجود (صدع) يبدأ من اللحظة التي يشرع فيها أحدهم بتمييز الآخر، أو إعادة خلقه في تصوّر ما،وفي قولبته، والحكم عليه مسبقا، لكنّ (مايكل) لا يفهم الكلام السابق على ما فيه من دلالة واضحة الأمر الذي يدفع سامرا إلى أن يقول:((الشرق الذي في ذهنك صناعة غربيّة خالصة ..أتعرف البروفيسور إدوارد سعيد؟))،يجيب(مايكل) بالنفي ،ليعقّب (سامر) علينا أن نقرأ ..أن يقرأ أحدنا الآخر ..عليك أن تقرأني لتثبت براءتك إن كنت بريئا حقّا(الرواية:168 ،169) .

يصل الحوار بين(سامر)،و(مايكل) إلى طريق مسدود بسبب سوء الفهم المتبادل بين المتحاورين،فيقول (سامر):((ها إنّنا وصلنا إلى طريق مسدود))(الرواية:171) ،ليقول (مايكل):((أشعر أنّ خيطا ما مقطوع بيننا ،كما لو أنّ كلا منّا يفكر بطريقة مختلفة.. أهو اختلاف الرؤية، أو اختلاف التجربة، أو اختلاف المعايير والقيم ،أو هذا كله؟من يدري))(الرواية:174).

ما قاله (مايكل) يشكّل فهما متقدّما لدواعي الانقطاع بين الطرفين، أي بين الشرق والغرب ،فاختلاف الرؤية يقود الى اختلاف في فهم التجربة ،واختلاف في فهم المعايير، والقيم التي تتحكم في طبيعة العالمين،وفي النهايةيجرّالحوارُ(مايكل) إلى الاعتراف الصريح :((لست بريئا من تهمة القتل))(الرواية:177)،والإعتراف بدوره يقوده بشجاعة الغربي إلى الاعتذار:((أعتذر منك لأنني أطلقت صواريخ،وقنابل على بلدك، وتسببت في قتل أناس من أبناء شعبك...فلتغفر لي.. وليغفر لي ولك الرب))(الرواية:178) .

ينطلق (مايكل) في اعتذاره من فلسفة ماديّة لاتخلو من براغماتية،فـ(الاعتراف) ،و (الاعتذار) اللذان ظهرا بوضوح في خطابه الحواري هما جزء من ثقافته التي تربّى عليها التي تتيح للإنسان الاعتراف بالذنب ،والاعتذار للحصول على غفران الرب.

ولكي يُظهر السارد (مايكل) في صورة (المغتفِر) التي تكشف عن انسانيّته المنفتحة على حبّ (الآخر) ،فإنّه وضع على لسانه طلب المغفرة مزدوجا : له، ولـ(سامر) أيضا، كناية عن تنوّره الذي يُعنى بالإنسان أيّ كان .

في مقابل صورة الاعتراف، والاعتذار التي قدمها (مايكل)، ماذا قدّم (سامر) من خطاب؟،(سامر)ينطلق دائما من رؤية ثقافيّة: روحيّة ،هي رؤية كلّ شرقي يتوخى الحفاظ على هويته ، والافادة من منجز(الآخر)،بعيدا عن لغة(الاعتراف) ،و(الاعتذار) التي لا تنتمي إلى ذاكرته الذاتيّة ،والجمعيّة، فضلا عن أنّ حياته التي عاشها تحت سلطة المعاناة جعلت منه إنسانا شبه مشلول ،وعاطلا...، حتى أنّه في أجمل أيامه الإيطاليّة لم يستطع أن يكمل مشروع (رواية) عمره التي عاش من أجلهالتبقى مبعثرة في وريقات قليلة يحملها أنّى كان.

إنّ اختلاف الرؤيتين المنطلقتين من تركيبتين حضاريتين مختلفتين جعل الحوار معقدا ،وأدّى بالنتيجة الى انقطاعه لسبب بسيط يتعلق بتمسك كل طرف بأصول ثقافته، وهذا ما بدا واضحا في حوار(سامر)،و(مايكل) الذي ينطلق في حواره مع (سامر) من نقطة يتجاوز فيها العامل الثقافي لـ(سامر) رغبة منه في اعادة تنظيم حياة (سامر) الثقافية ،والسياسية، أمّا الأخير فرأى في حوار (مايكل) مشروعا جديدا للصدام مع الحضارة الغربيّة غرضه فرض ثقافة الغرب ،أي خلق هيمنة جديدة هي هيمنة (العولمة) بلا شك بآلياتها التي تتجاوز الأطر ،والكيانات الجغرافية، والسياسية، إلى فضاء منفتح على العالم.

6-الخاتمة:

1-حاولترواية:(ترنيمةامرأة.. شفقالبحر) أنتمثّلأدبيّانمطينمنالأفكارالقائمةعلىرؤيتينمختلفتين:

الأولى:أفكار (سامر) التيتتركّبمنسياقات سرديّة تنتمي إلى الماضي ،لتلتصق بفضاءالوطنعلىالرغممنكلّالإشكالاتالتيرافقتوجودهداخلالعراقوخارجه.

الأخرى:أفكارالشخصيّاتالغربيّةبدءامن (كلوديا)،وانتهاءبـ(مايكل)التي تتعامل تعاملا حقيقيّا معالواقعالذي يستند إلى المصالح ،وقيم العلم ،وهيالتمثيلالأصعبفيالروايةالذياقتضىمنالمؤلفأنيلمّالماماتامّابالثقافةالأوربيّةليسكبها على الصفحات ،ولاسيّماالثقافةفي(إيطاليا)التيشغلتجزءامهمّامنالروايةبدءامنأسماءالشوارع،وانتهاءبأسماءالمطاعموما تقدممنأكلات.

2- ارتجاليّة السيرة الخاصة بـ(سامر)،واداء المصادفة فيها ،وانهزاميّته فهو في النهاية ليسسوىشابّ ،وحقيبةصغيرة،وأوراقمتخمةبالكلمات،وجوازسفرمزوّر ممزّقعندالساحل الآخر الذي وصل إليه حتما.

3- تؤكّد (الخاتمة) الطبيعة الحجاجيّة التي ظهرت ملامحها في الخطاب الحواري الذي ميّز الرواية لاسيّما ذلك الذي يعنى بقضيّة (الاستشراق)، و(الحوار الحضاري)فإنها- الخاتمة- تلفت النظر

الـــى أنّ حجاجيّـــة الحـــوارات فـــي دلالاتهـــا الخاصـــة،والعامّة ليســـت مـــن نتـــاج (سامر)،و(كلوديا)،و(مايكل)،و(نيكول)، و(روبرت)،و(كاترين)، إنّما هـي خطابـات تـمّ انتاجهـا، وأعِيـد تسويقها في المجتمعات التي ينتمي إليها المتحاورون ،وإن المحاوِر لا سلطة له على خطابه ؛لأنه في حقيقة الأمر يمارس نقل الحجج ليشيع تداولها ،وليست له القدرة على إنتاجها بمـا يخـالف المرجعيـات التي ينتمي إليها.

4- وجود إشكاليات تسهم في الفصل بين حوار الحضارات ،بما تشكّل مانعا حقيقيّـا يـدرأ التفـاهم، والإنسجام الإنساني ليدفع مفاصل الإختلاف نحو التغليب الأيديولوجي القـائم علـى أحاديّـة (الأنـا) التـي تنكر مزايا (الآخر)،وتعمل على إعلاء سلطتها المعرفيّة القائمة على ثنائيّة التابع: المتبوع.

5-وجودأزمـةتعتلي ذاكـرة المثقـف العراقـي، وأخـرى تـنمّط ثقافتهبمـا يجعلهـا عـبءا ثقـيلا علـى حاضره، فـ(سامر) ليس نبتا شيطانيّا فـي خارطـة الثقافـة العراقيّـة المعاصـرة ،إنّمـا هـو حالـة تتشـظّى نسقيّا لتكتب تداولها على جدار أزماتنا المعاصرة .

الإحالات:

[1]- ينظر:مختار الصحاح:الرازي: دار الكتاب العربي بيروت: 1981م :مادة(شرق)،ولسان العرب:ابنمنظور- دارصادر،بيروت- دونتاريخ :مادة(شرق)، وللمزيد ينظر:الحركة الاستشراقية مراميها وأغراضها:أ.د. رشيد العبيدي :مطبعة انوار دجلة: بغداد:2003 :10 ،11.

[2]- ينظر: الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء: ادورد سعيد: نقله إلى العربيّة: كمال أبو ديب: مؤسسة الأبحاث العربيّة:ط80،101:1984:2.

[3]- ينظر: نفسه:80.

[4]- ينظر: نفسه:81.

[5]- موسوعة السرد العربي:د.عبد الله إبراهيم:المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر:بيروت:2008: 386.

[6]- نفسها:2008: 386.

[7]- تعقيبات على الاستشراق: ترجمة وتحرير :صبحي حديدي: المؤسسة العربية للدراسات والنشرط1: 1996:64.

[8] - ينظر: أثر المقامة في نشأة القصة المصرية الحديثة: د. محمد رشدي حسن: الهيئة المصرية العامة للكتاب:مصر:79.

[9] - الرواية العربيّة والحضارة الأوربيّة :شجاع مسلم العاني: الموسوعة الصغيرة: العراق: 1979 :6.

[10]- ينظر كتاب:الروايةالعربيّةوالحضارةالأوربيّة : شجاعمسلمالعاني، وعلاقات الحضور والغياب: في شعرية النص الروائي: د. سمير الخليل: دار الفراهيدي للنشر والتوزيع:ط1: 2010 : 149.

[11]- ينظر: الرواية العربية والحضارة الاوربية:32،105.

[12]- ينظر: نفسه:149.

[13]- ينظر: الاستشراق...:214.

[14]-ينظر: الاستشراق...:117،218.

[15]- الاستشراق: المعرفة،السلطة،الانشاء :275.

[16]- تنوع المرتكزات السردية في رواية(ترنيمة امرأة.. شفق البحر):ناطق خلوصي: موقع الناقد العراقي في 2012/2/22.
[17]- المستشرقون:ج1:نجيب العقيقي: دار المعارف بمصر :ط4: 1980 :405.
[18]- ينظر: الحوار العربي الأوربي :هيفاء أحمد السامرائي: وزارة الثقافة والاعلام: 1982: بغداد :305،306.
[19]- ينظر: رؤية الايسيكو للحوار بين الحضارات :ضمن بحوث كيف نواصل مشروع حوار الحضارات:عبد العزيز التويجري:دمشق:2001: 17،وينظر:صدام الحضارات لهامتنغتون :دراسة جيوبوليتيكية:مركز كردستان للدراسات الاستراتيجيةالسليمانية:2007: 151.
[20]- ينظر:المعجم الادبي:جبور عبد النور:دار العلم للملايين:بيروت:1984: 94.
[21]- ينظر:الاستشراق...:3.

8-المصادر والمراجع:

1- أثرالمقامة فينشأة القصة المصرية الحديثة: د. محمدرشديحسن: الهيئةالمصريةالعامةللكتاب :مصر د.ت.

2- الاستشراق: المعرفة،السلطة،الانشاء: إدواردسعيد: نقلهإلىالعربية: كمالأبوديب: مؤسسةالابحاثالعربية: ط2: 1984.

3- تعقيباتعلىالاستشراق: ترجمةوتحرير :صبحيحديدي : المؤسسةالعربيةللدراساتوالنشرط1: 1996.

4- تنوعالمرتكزاتالسرديةفيرواية(ترنيمةامرأة. شفقالبحر):ناطقخلوصي: موقعالناقدالعراقيفي 2012/2/22.

5- الحركةالاستشراقيةمراميهاوأغراضها :أ. د. رشيدالعبيدي :مطبعةانواردجلة: بغداد:2003.

6- الحوارالعربيالأوربي :هيفاءأحمدالسامرائي: وزارةالثقافةوالاعلام: 1982: بغداد .

7- رؤيةالايسيكوللحواربينالحضارات:ضمنبحوثكيفنواصلمشروعحوارالحضارات: عبدالعزيزالتويجري:دمشق:2001.

8- الروايةالعربيّةوالحضارةالأوربيّة : شجاعمسلمالعاني: الموسوعةالصغيرة: العراق: 1979 .
9- صداماالحضـــــــــــــــــــــــاراتلهامتنغتون :دراســــــــــــــــــــــــةجيوبوليتيكية: مركزكردستانللدراساتالاستراتيجيةالسليمانية :2007 .
10- علاقاتالحضـــــــــــورالغياب: فيشعريةالنصـــــــــــالروائي: د. ســــــــــميرالخليل: دارالفراهيديللنشروالتوزيع:ط1: 2010 .
11- لسان العرب :ابنمنظور- دارصادر،بيروت- دونتاريخ.
12- مختارالصحاح الرازي: دارالكتابالعربيبيروت: 1981م.
13- المستشرقون:ج1:نجيب العقيقي: دارالمعارفبمصر :ط4: 1980 .
14- المعجم الادبي: جبورعبدالنور: دارالعلمللملايين:بيروت:1984.
15-موسوعةالسردالعربي : د. عبدالله ابراهيم : المؤسسةالعربيةللدراساتوالنشر: بيروت:2008.